القول بالطبيعة الواحدة في المسيح

عند شمعون الطوراني

بقلم الاب اغناطيوس عبده خليفة اليسوعي

الشيعة النسطورية بفرقها في المسيح الإله والانسان احدثت ردّة القائلين بوحدة الطبيعة مع ما جاءت به من افراط في الكلام ومبالغات في التعابير قد تفضي الى انكار ثبات وكمال الطبيعتين في وحدة الاقنوم.

للدفاع عن الوحدة اتخذوا تعابير من شأنها ان تعني قبولهم باختلاط اللاهوت والناسوت وتغيّرهما في المسيح. في كتاباتهم هاتان اللفظتان « اختلاط » و« اختلط » ترددان احياناً: المسيح اختلط بالجسد. لا بد ان غايتهم في ذلك كانت الدلالة على وحدة الكلمة والجسد. مهما كان من الامر انه تجلى بان القول بوحدة الطبيعة هو بخالف لتعليم المجمع الخلقيدوني الذي حدّد ان في المسيح طبيعتين.

بعد الاقرار بهذه الوحدة لا بد للقائلين بها من تفسير ما هو: ففي رأيهم انها تتمّ حسب الطبيعة والاقنوم وان كل اتحاد حقيقي يجب ان ينتهي الى طبيعة واحدة واقنوم واحد حتى تجعل من اللاهوت والناسوت مسيحاً واحداً ابناً واحداً الكلمة الذي صار جسداً. هذا اثبات الاتحاد بالطبيعة ليس له الا معنى واحد: انه لا يُلغي قط الفرق بين حقيقة اللاهوت والناسوت لكنه يؤيد وحدة الفرد في الكلمة المتجسد. هذا الاتحاد يؤول الى تكوين مسيح واحد حقيقي تامّ هو معاً الكلمة والجسد اله وانسان. وحدة دون تمييز دون اختلاط اللاهوت والناسوت لكن دون اعطاء كل منها شخصية « بروسوبون » خاصة لانهما لا يتلاقيان بحالة متفرّدة ومفترقة. هكذا يكون التأليف نوعاً من الاتحاد يبقي العناصر التي تجمعها تامّة بصحتها الخاصة لكنها تنزع منها قيامها الذاتي المتميز ووجودها المفترق المستقل فالاتحاد اذن كما نرى ذلك يتم لا في الكيان لكن في الوجود.

القائلون بوحدة الطبيعة يفرطون في التدقيق وبما انهم يعتقدون بمساواة الطبيعة « والذاتية » (hypostase) والاقنوم يُثبتون بان هذه الطبيعة الوحيدة هي لاهوت الكلمة لا غير . هذا ما يؤكده صريحاً المؤلف في كتابه كما سيبين ذلك لنا. ففي كلامه عن المسيح ينسب الى اللاهوت للكلمة بكونه الهاً كل ما في الوجود اما الى الجسد الى الارادة فلا ينسب الا كل ما يبقى لان المسيح هو الله والله فقط حتى بعد ان صار انساناً.

بعد ان قدمنا هذه المعلومات الوجيزة عن اهمّ تعاليم موحّدي الطبيعة في المسيح اننا نحاول الان نقد موقف مؤلفنا .

يبتدئ شمعون عرضه بكلام الرب في الانجيل : « لم آتِ لاعمل مشيئتي لكن مشيئة الذي ارسلني » من هذا الكلام ينتج المؤلف بانه ليس في المسيح مشيئتان لكن مشيئة واحدة فانه ما قال هذا ليعني مطابقة مشيئته مع مشيئة الله لكن لينكر معلناً عدم وجودها تماماً. ويزيد شمعون قائلاً لو كان للمسيح ارادتان فايهما نزلت من السماء ؟ وعلاوة على ذلك هل يكون الثالوث الاقدس ثلاث ارادات واننا ان جعلنا للمسيح ارادة عدا الارادة الالهية لوُجد في الثالوث اربع ارادات .

ان المسيح اتحد بجنسنا « اتحاداً اقنومياً لا اصطحابياً اضافياً كما يُقرّون بعض الاراتقة النسطورية وبعض الاراتقة الرابيّة القابلين في اعتقادهم ان مولانا المسيح هو صورتين الواحدة هي موضوعة للاهانة والشتايم والاخرى تبهر بالمعجزات وكل واحدة تفعل ما يختص بها بالاشتراك مع الآخرة. وبقولهم هذا نبذوا اتحاد اللاهوت بالناسوت بهذا المقدار حتى عاد اصطحابياً او اشتراكياً او اضافياً. . . وهذا الاعتقاد ليس هو اعتقاد الكنيسة الواحدة المقدسة ولا واحد من ابائها القديسين الكاملين الناطقين بالهام الروح الكلي قدسه » وبنوع ان الكلمة اتحد بالانسان حتى ان الله والانسان اضحيا اقنوماً واحداً : « اتحد اتحاداً اقنومياً طبيعياً لا تثنية فيه ولا فرقة بل هو اتحاداً عجيباً بهذا المقدار حتى صار الاله والانسان اقنوماً واحداً » .

« نعم تجسد ولكن بتجسده لم يزد في الثالوث الاقدس ولا عليه شيئاً آخر

لا طبع ولا ارادة ولا فعل ولا اختيار . وهو نفسه الاله المتجسد بطبع واحد ومشيئة واحدة وفعل واحد » .

فالكلمة لم يكتسب ارادة بشرية : لو كان له ارادة بشرية لكان في الثالوث تفرقة لكان لكل اقنوم الهي ارادة وعمل وهذا هو « كفر » .

علاوة على ذلك اثبات ارادتين يجعل الابن ابنين وهذا « كفر » . الابن الوحيد هو يد الآب ذراعه قوته حكمته فاذن كل ما يعمله المسيح ويريده هو إرادة وعمل الآب والروح القدس معاً فاليد هل تقدر ان تعمل عملاً خارجاً عن ارادة الرأس . الروح هو الذي يدل اليد على ما ينبغي عمله فلما كان المسيح يد الآب كل ما يعمله يعمله بإرادة الآب . وقد قال هو ذلك : لم آت لاعمل مشيئتي لكن مشيئة الذي ارسلني . بقوله هذا يرفض اثبات ارادته الخصوصية والا لكان مسيحين مسيح للمعجزات وآخر للامور الارضية .

ليس لنا ان نتكل على كلام الآب عند المعمد : هذا هو ابني الحبيب به وصفت مسرتي » فان الاب قد تكلم عن ابنه بالطبيعة . لا اكثر . اذن من المحال ان نميز اثنين في هذا الابن . المسيح الذي صنع العجائب والاعمال البشرية هو هو عينه .

من جهة اخرى لا بد لكل عمل من عامل فاذا كان للمسيح عملان كان ايضاً فيه عاملان : « هذا الاتحاد لا فرقة فيه ولا تثنية من غير اختلاط ولا امتزاج ولا استحالة » . « وهو هو كان في الحضن الابوي وهو كان في البطن البتولي » .

والحالة هذه ليس في المسيح الا عامل واحد للاعمال العجيبة وللاعمال الاعتيادية : « فعل الضعيفات بلاهوته وهو ايضاً فعل العليات بناسوته بفعل واحد لفاعل واحد » . « اتحد بطبعنا الكامل من كل وجه اتحاداً طبيعياً اقنومياً » « اللاهوت بفعل الدنيات بناسوته بفعل واحد لفاعل واحد . . . » . « لان الطبع لا قوام له الا باقنوم وحيث ليس اقنوم فما للطبع من وجود » . « وهكذا نقول في المسيح بأنه هو اقنوماً واحداً فطبعه ايضاً هو واحد وفعله واحد واختياره هو واحد » .

واليعاقبة موحدو الطبيعة قد تسلط عليهم واجب مناقضة النساطرة الى هذا

الحدّ انهم يعتبرون ضروريًا ودون تمييز كنسطوري كل من لا يقول مقالهم وهذا لانهم يعتقدون بان اثبات طبيعتين في المسيح يوجب اثبات اقنومين ايضاً : « اما قولك في المسيح طبيعتين ينبغي ان نقول عنه اقنومين » . او من يثبت في المسيح طبيعتين لا يقدر بعد ان يتكلم الا عن اتحاد « اصطحابًا اشتراكيًا » والحال ان المسيح واحد في طبيعته : « ان المسيح واحد بالطبع والاقنوم الواحد وانه مع ابيه وروح قدسه بارادة واحدة وفعل واحد » .

غايتنا هنا هي ان ننتبه الى هذا الاثبات الاخير الذي يعتمد مؤلفنا عليه لتجيب على احتجاجات شمعون اليعقوبية .

***

ما نلاحظه اولًا هو ان موحدي الطبيعة القدماء — ومنهم مؤلفنا — باندفاعهم المفرط في طريق مناقضة الشيعة النسطورية تطاولوا خصوصاً الى اقنوم الكلمة الواحد الغير المتغيّر حتى في التجسد وهذا ما جعل مذهبهم وحيد الاتجاه فانه يتكلم بوضوح وقوة عن بعض خصائص المسيح دون التعرض للاخرى . انه يعترف بثبات العنصرين الدائم في الاتحاد لكنه لا يعترف به إلّا تاليًا . انه لا يلاشي يسوع باقصائه في الابدية لكنه يدخل الكلمة في الزمان والتاريخ كأنه يخاف من ايضاح وجود العنصرين في اتحادهما في الاقنوم عينه . لنأتِ الآن الى بحث اثباتات مؤلفنا الصريحة .

***

اول اثبات يُصرّح به شمعون هو ان الكلمة المتجسد يكرر هذا القول : « لم آتِ لاعمل مشيئتي لكن مشيئة الذي ارسلني » . يرى المؤلف ان المسيح في هذا القول ينفي تماماً « الارادة البشرية » فيه . فما الرأي العائب في هذا الادعاء :

امر غريب الاعتماد على هذا النص لنكران الارادة الانسانية في الكلمة المتجسد وفيه على ما يبين اثبات لوجودها فان الكلمة المتجسد اذ يثبت وجود ارادته وحقيقتها يعلن خضوعها وتسليمها التام لارادته الإلهية ارادة كلمة الله . ثم الا نجد صدى هذا النص في الرسالة الى العبرانيين : « قد جُرّب في كل مثلنا ما خلا الخطيئة » (٤ — ١٥) . فما تكون طبيعة بشرية دون ارادة

خصوصية وحقيقية مميزة للافعال الخاصة بها الصادرة من الانسان . ولو لم يتجسد الكلمة تجسداً حقيقياً بأخذه طبيعة بشرية صحيحة متحدة دون انقسام بكلمة الله لكن — حسب قول مجمع خلقيدونيا ومجمع القسطنطينية الثالث — قابلة للمعرفة متميزة ولو متعلقة تعلقاً داخلياً باللاهوت كيف كان ممكناً ان يتم خلاصنا وكيف يمكننا اذاك ان نثبت بان الكلمة تجسد تجسداً حقيقياً بأخذه طبيعة بشرية وقد انكرنا وجود ارادة بشرية مختصة بهذه الطبيعة . بحق يقول مجمع القسطنطينية الثالث بان طبيعة مؤلهة ليست متلاشية . وفي وجود هذا الاتحاد والتميز معاً في التجسد السر الذي نؤمن به وله تخضع عقلنا. فاذا توقفنا في قبوله تماماً كنا عرضة للتخيلات والتناقض (دنزنغر ١٤٣ و ١٤٨ و٢٨٩—٢٩٣ . ونقدر ان نذكر نصوصاً عديدة من تعاليم الكنيسة تثبت هذه العقيدة) .

اثبات شمعون الثاني يزيد في انذهالنا . يتساءل ماذا تكون ارادة الكلمة المتجسد التي نزلت من السماء . اليس في هذا السؤال نوعاً ما رفض لادراك الروابط الحقيقية الموجودة بين اقنوم الكلمة البريء من التغير الذي يدوم هو هو الذي اتخذ جسداً بشرياً فردياً دون ان يترك السماء وبين الطبيعة البشرية . الاتحاد الاقنومي يتم في الاقنوم والذي اتخذ دون اختلاط الطبيعة البشرية هو اقنوم كلمة الله . لا يبقى اذن مجال للتساؤل عن اي من الارادتين نزلت من السماء . للجواب على هذا السؤال الغريب نورد ما يقوله القديس لاوون : « نازلاً من عرش السماء وغير مستبعد من مجد الآب ... الغير منظور بما هو خاص به صار منظوراً بما هو خاص بنا والغير ممكن ادراكه اراد ان يكون مُدرَكاً الدائم قبل الازمنة بدأ ان يكون في الزمان ... » (دنزنغر ١٤٣و١٤٤) .

لكن اعتبارات شمعون لا تتوقف هنا فانه يقول : اذا فرضنا ان للكلمة ارادتين فما يحدث اذن للثالوث المقدس فانه بثلاثة اقانيم لكن بطبيعة واحدة وقدرة واحدة وارادة واحدة وفعل واحد للثلاثة اقانيم (دنزنغر ٢٥٤) اذن الارادة هي مرتبطة بالطبيعة عينها . مجمع القسطنطينية الثالث لا يكف عن تكرير قوله بان الارادة هي من نفس الطبيعة . من ينكر الارادة الخاصة

بالطبيعة البشرية انكرها هي ووقع في ضلال ناكري حقيقة الجسد (docétisme) في المسيح او رضي بما يعلمه شمعون اي ان الكلمة والانسان ليسا بعد الا شخصاً واحداً : هذا الاثبات هو مما صحيح ومخطئ : هو صحيح بما انه ينكر وجود اقنومين في المسيح وهو مخطئ بما انه يلاشي البشرية في الكلمة بحيث انه لا يبقى اهمية لوجودها او عدم وجودها وهكذا يكون التجسد والفداء والقيامة الفاظاً لا معنى لها .

ان الارادة البشرية في الكلمة المتجسد تبقى بشرية حتى بتألهها فليس اذن في الثالوث ارادتان ارادة الطبيعة الالهية وارادة المسيح البشرية فان ارادة المسيح البشرية تمسك مرتبطة باطناً بالطبيعة البشرية التي اتخذها الكلمة وليس لها في احكام الثالوث الا ما هو للاقنوم الثاني الذي اتخذها . انها ليست غريبة عن الثالوث .

هذا جوابنا على ادعاء شمعون الاخير بانه ان كان ارادتان كان ايضاً ابنان : (فكما اذن جسده يسمى وهو بالحقيقة جسد الله الكلمة كذلك ارادة جسده الطبيعية هي خاصة بالله الكلمة قولاً وفعلاً : « لانني نزلت من السماء لا لاعمل مشيئتي بل مشيئة الذي ارسلني » (يوحنا ٦ : ٣٨) يتكلم عن مشيئته الخاصة اي مشيئة جسده) .

هوذا حجة مؤلفنا لاثبات مقاله يقول : لكل فعل فاعل فاذن اذا وُجد عمل انساني في الكلمة المتجسد يكون فيه فاعلان . اذا اثبتنا فيه طبيعتين نثبت في الوقت عينه اقنومين . والحال واحد هو المسيح في طبيعته .

ان سر تجسد كلمة الله يعلمنا بان اقنوم الكلمة اذ اتخذ الطبيعة البشرية قد تركها تامة بذاتها ولاعمال هذه الطبيعة البشرية قيمة غير متناهية من سبب الاتحاد الاقنومي عينه .

قلنا اعلاه عَرَضاً بان الاتحاد في التجسد يتم في اقنوم الكلمة لا بين الطبيعتين . فان الاقنوم الالهي هو الذي يرفع الى وحدته الطبيعة البشرية وهذا الاقنوم الالهي نفسه اذ يرفع اليه الطبيعة البشرية يمنحها القيام في شخصيته اي اقنومه . اما الاتحاد بالطبيعة فيتطلب اختلاط العناصر التي تتحد والحال حسب تعليم الانجيل الطبيعة البشرية لا تتلاشى بالتجسد واننا اعتمادًا الى النصوص الموحاة نثبت الاتحاد في الاقنوم لا في الطبيعتين لكن كما انه في الكلمة

الالهي الاقنوم والطبيعة الالهية ليسا مفترقين في الكيان فهما اذن حقيقة واحدة. مع ذلك فما تعنيه اللفظتان اقنوم وطبيعة هو مختلف لذلك الاتحاد بالاقنوم ليس الاتحاد بالطبيعة فانه لا يمكن ان تكون الطبيعة الالهية موضوعاً في الاتحاد الا بواسطة الاقنوم نفسه (cf. S. Thomas, III^a, Q.II,a.2, ad I^m ; Thomssin, *de Incarnatione*, L. III, c. V, n. 2).

ان اثباتات شمعون تختص معاً بشيعة موحدي الطبيعة (monophysites) وموحدي الارادة (monothélites) فانها تقول: «بما انه ليس في المسيح الا فاعل واحد يعمل والهة وحده تنتسب الاعمال الالهية والانسانية وهو اقنوم الكلمة الذي يفعل تارة بلاهوته وتارة بناسوته فنقول بانه ليس فيه الا فاعلية (energeia) واحدة» فيه قد تلاشت الطبيعة الانسانية وليس بعد فيه الا طبيعة (phusis) الكلمة الازلية لكنها الان مركبة لانها الآن تقوم ايضاً بالجسد اي بالناسوت الذي اتخذته فانها مكتسبة بالجسد.

هنا اذ نوجه القارئ الى البحوث المدققة العديدة بخصوص التجسد نود ان نلخص الاجوبة على هذه المشكلة بالملاحظة الآتية:

ان شمعون لا يزيد قطّ على حجج موحدي الطبيعة التقليدية حجة جديدة لذلك فالاجوبة التي أعطيت تقليدياً قبله لها ايضاً قوتها ضده.

واننا نقدر ان نلقي ختاماً هذا السؤال: اليس في موقف موحدي الطبيعة مشكلة كلامية لا غير. يصعب عليهم التعبير عن العقيدة فيقولون «هو بعينه كان يرفض بشرياً الألم ويقول: يا ابتاه ان كان مستطاعاً فلتعبر عني هذه الكأس... والهياً: الروح مستعد. وراضياً كان يذهب الى الالم والعذاب. (راجع لوبون: توحيد الطبيعة السوري: ١٩٠٩ — ص ٤٦٤). كما قلناه في البدء. نرى ان مناهضتهم للنساطرة جعلهم ان يجدوا في المجمع الخلقيدوني العقيدة النسطورية وهذا كان يدفعهم الى المبالغة في التمسك بالوحدة دون التمسك بما يخص حفظ العنصرين اللذين اتحدا. مدى تاريخهم نراهم يتناقضون ويضاون ويستعملون عبارات مخالفة لما علمه لاهوتيوهم الاولون. على كل اننا لا نجد عند شمعون جديداً لا نجد الا ما سبقه اليه الاولون دون اعطاء اثباتات تفسر لنا تمسكه بما يورده.